د. عبد الإله ميقاتي

خواطر إيمانية

كيف نحمي بالإيمان:
أنفسنا ومجتمعنا ...
ونعيد بناء حضارتنا ...

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

خاتمة الكتاب

يجمع العلماء والباحثون أن العالم اليوم يعاني من أزمات عديدة ومتلاحقة: أزمات مالية عالمية، تتوالى عقداً تلو الآخر، وأزمات اجتماعية تارة بين شمال وجنوب، وتارة بين لون وآخر، وتارة بين فقرٍ مدقع وغنىً فاحش، وأزمات أمنية، تارة داخلية بين الطوائف والمذاهب، وتارة بين شعب وآخر، ودولةٍ وأخرى، وأزمات اقتصادية بين شرق وغرب تزداد حدة يوماً بعد يوم. وأزمات صحية تنتشر أحياناً في العالم لتصبح وباءً يقضّ مضاجع العالم بأسره. فهل إلى خروج – من هذه الأزمات – من سبيل؟

لا شك أن ما جاء به الإسلام الحنيف، من قناعات إيمانية، ومن عباداتٍ ومحطاتِ تنقية، تثبّت الإيمان في القلوب، وما يستوجب ذلك من عبادات خالصة لله تعالى، تدعو لتصديق وتطبيق ذلك بالأعمال الصالحة، والالتزام بمكارم الأخلاق وسموّ القيم، وفضائل الآداب، كل ذلك يمهّد للقيام ببناء مجتمع فاضل، يقوم على الإنسان الصالح، المنفتح على الآخر، المتعاون مع الجميع في كل ما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً في ما نختلف حوله، مجتمعٍ فاضل تسوده العدالة، والأمن والأمان والعيش المشترك، وسائر القيم والأخلاق وآداب المعاملات. ليس فيه للفقر ولا للظلم مكان. وإن كان مفهوم «المجتمع الفاضل» مفهوماً مثالياً

قديـمٍ غيـر متكامل يعود إلى أربعة قرون قبل الميلاد، للفيلسـوف اليوناني أفلاطون، إلا أنه لم يحظَ بنسبة تطبيق عالية متكاملة على جميع الصعد، كما حظيَ في انطلاق الدعوة الإسـلامية وانتشـار الحضارة الإسلامية، وذلك بفضل التكامل الذي جاءت به الشريعة الإسلامية في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

وقد أسسـت الشـريعة الإسـلامية «لأطر وحدود ومساحات الأفعـال، وتركـت مـا بينها للنـاس ومحيطات حياتهـم وظروفهم وأحوالهم، كما يقول د. رائد شرف الدين في محاضرة له بعنوان: «المـال في القرآن الكريم»، من ضمن سلسـلة محاضرات «الدين في اختبار المال» التي جرت في مركز الشرق المسيحي للبحوث والمنشـورات – كلية العلوم الدينية – في جامعة القديس يوسـف فـي 4/ 2/ 2020 فـي بيـروت. ويضيـف: «لقـد تناولت (الشـريعة الإسـلامية) الـرزق، الكسـب، الإنفاق، الزكاة، الصدقـات، الربا، التجارة، الزراعة، الغرس، الأكل والشـرب، الإصلاح، الإفسـاد، التعميـر، الابتغـاء مـن فضـل الله، الميـراث والوصيـة، الكفالـة، الرهن، الفقراء، الأغنياء، البيع، الشراء، الزروع المختلفة، المياه، الصناعات، والحث على توثيق الديون بالكتابة والإشهاد، ووجوب الوفـاء بالعهـود والعقـود، وحفـظ الأمانـات وأدائهـا لأصحابها، ووجـوب الاهتمـام بأمـوال اليتامـى وتنميتها والمحافظـة عليها، وكذلك الآيات المتعلقة بتحريم الربا والميسر وأكل أموال الناس بالباطل من رشـوة وغش وغيرها. وتعتبر هذه الأحكام والمبادئ

والضوابط، بحق نماذج متقدمة من العدالة الاجتماعية».

ويُضاف إلى ذلك ما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة، من أحكام في مواضيع الزواج والطلاق، والحريات، والشورى في الحكم، والفساد، ونشر العلم، والحث على الزيادة فيه والنفع منه، والاقتصاد في الثروات الطبيعية، والعمل الصالح، والسعي في منفعة المجتمع، والصدق والإخلاص في القول والعمل، والتفكر قي ما خلق الله تعالى في هذا الكون الفسيح، وفي إعمال العقل والإبداع في كل ما ينفع الناس.... وغير ذلك كثير.

وإذا كان العالم اليوم يسير وفق أنظمة ومعايير ترعاها هيئة الأمم المتحدة، التي عملتْ وتعمل على بناء وتنمية قدرات المجتمعات في مفهوم عصري مستحدث هو «التنمية المستدامة»، ووضعتْ لها سبعة عشر هدفاً أساسياً، في الأول من كانون الثاني عام 2016 نوردها باختصار شديد، مع بعض ما يقابلها في القرآن الكريم والسنة المطهرة، والتي عرفها العالم منذ أربعة عشر قرناً ونيف: (يراجع موقع Academicimpact.un.org)

الهدف 1 و2: القضاء على الفقر، والقضاء التام على الجوع: فقد شرع الله تعالى زكاة المال والزروع وغيرها، وكانت كافية لتحقيق هذا الهدف، كما ذكرنا في الفصل الثاني في باب الزكاة حيث لم يجد رسل الخليفة عمر بن عبد العزيز من يأخذ الزكاة لا من المسلمين ولا من غير المسلمين، فأوعز إلى رسله بنثرها فوق

رؤوس الجبـال حتـى تأكل الطير من خير المسـلمين، يضاف إلى ذلك سياسـة الوقف في الإسـلام (يراجع ملحق رقم 2). وحديث الرسـول صلّى الله عليه وسـلم «ما آمن بي من بات شـبعانَ وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به» (رواه الطبراني) خير دليلٍ على ذلك.

الهـدف 3: الحرص على الصحة الجيدة والرفاه: وقد مرّ معنا أثـر صـوم الفريضة وصوم النوافل مثلاً على الصحة، وما اكتشـفه العلـم الحديـث فـي هـذا المجال. وكذلـك ما مرّ معنـا من آداب الطعام والشـراب وعدم الإسـراف حفاظاً على الصحة وغير ذلك كثيـر، وكذلـك النهـي عـن كل ما يضـر بالصحة عمـلاً بالحديث الشامل «لا ضرر وضرار». وكذلك في موضوع الأوبئة وانتشارها، ومـا جاء فـي حديث النبي عليه الصلاة والسـلام: «إذا سـمعتم به (أي بالوبـاء) بـأرضٍ فـلا تقدموا عليه، وإذا وقـع بأرضٍ وأنتم بها فـلا تخرجوا فراراً منـه» (متفق عليه). والأحاديث التي وردت في الحـرص على الصحة، جعلت العلمـاء يخصصون لها باباً خاصاً يُعرف باسم «الطب النبوي».

الهدفـان 4 و9: التعليم الجيـد، والصناعة والابتكار والهياكل الأساسـية: فـإذا كانت أول كلمة فـي القرآن الكريـم «اقرأ» والآية الكريمـة: «وقـل ربّ زدني علماً»، والحديث الشـريف الذي يأمر بطلـب العلـم حيثما كان «اطلبـوا العلم ولو فـي الصين»، فإن من صفـات التعليـم الجيـد أن يكـون نافعاً للإنسـان عمـلاً بالحديث والدعـاء الشـريف: «اللهم إنا نعوذ بك من علـمٍ لا ينفع...»، لأن

العلم الذي لا ينفع بشكل مباشر أو غير مباشر قد يكون ضررُه على الإنسانية كبيراً وكبيراً جداً، ولذلك وصف رب العالمين الخضر عليه السلام الذي جاءه موسى عليه السلام ليتعلم منه بقوله: «آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً»، فقد قدّم الله تعالى الرحمة على العلم ليكون العلم نافعاً رحيماً بالإنسان عموماً. ولذلك فقد تطوَّرَ العلم النافع في صدر الإسلام تطوراً عظيماً جداً، وشكّل أساساً للتطور العلمي بعد ذلك، فكان علماء المسلمين بحق رواد الحضارة الإنسانية بفضل اختراعاتهم. وقد أرسل هارون الرشيد في مطلع القرن التاسع الميلادي (حوالي سنة 807 م) هدية «عجيبة» إلى شارلمان ملك الفرنجة كانت عبارة عن ساعة ضخمة، فكانت أعجوبة العلم والفن والصناعة، حتى إنّ رهبان القصر اعتقدوا أن في داخل الساعة شيطاناً يحركها. فانهالوا عليها ليلاً ضرباً بالبلطات، وحطّموها....

الهدف 5: المساواة بين الجنسين: كنت أتمنى أن يكون عنوان هذه المادة: «**التكامل بين الجنسين**»، لأنه أولى وأعم وأصح وأشمل، ولأن الله تعالى خلق الذكر والأنثى، وقال: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، ذلك أن التكوين الجبليّ لكل من الرجل والمرأة يقتضي التغاير بينهما، ليتمكّن كل واحد منهما من تأدية دوره في الأسرة التي هي نواة المجتمع. وخصّ الله تعالى كلاً من الرجل والمرأة بخصائص متشابهة أحياناً، ومختلفة أحياناً. وجعل في تكامل هذه الخصائص قوامَ الحياة المجتمعية المثالية.

فعمـوم النسـاء يتميّزنَ بترجيـح قوة العاطفة علـى العقل، وعموم الرجـال يتميّـزون بقـوة العقـل علـى العاطفـة. وفي ذلـك تكامل عجيـب. فالطبيعـة الأنثويـة هـي التـي تمكّن المـرأة مـن الحَمْل والإنجاب والرضاع والاحتضان، ورعاية البيت والأولاد والسهر علـى مرضهم وتعليمهم، كما تسـاعدها على العمل، إذا شـاءت، وإن اسـتطاعت، في بعض الميادين كالتعليم والطب والتمريض، والعمـل الاجتماعـي والإنسـاني، وكل ذلـك ينحـو بالمـرأة إلى مناحـي العاطفـة وقوة الاحتمال، والاسـتعداد للبذل تجاه الآخر. لذلك شـبهها الرسـول عليه الصلاة والسـلام بالقوارير في حديثه «رفقـاً بالقواريـر»، وفي حديث آخر يقـول: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي، ما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهنّ إلا لئيم».

والطبيعة الرجولية هي التي تمكّن الرجل من مكابدة الميدان العملي خارج المنزل ومزاولة المهن المختلفة ومخالطة أصحاب المصالـح الماديـة، كل ذلـك يجعـل الرجل مهيئاً جسـدياً للعمل العضلـيّ، ونفسـياً للسـمة العقلانية فـي مقاربة الأمـور. وإذا كان بعض علماء الغرب، مَن يبدي بعض الملاحظات حول التشـريع الإسـلامي فـي موضـوع الميـراث، وأن نصيـب الرجـل ضعـفُ نصيـب المـرأة في بعض الحـالات، أو في قوامـة الرجل، فقد ردّ علماء المسلمين على ذلك بالتفصيل ويمكن الرجوع إليه. تجدر الإشارة إلى أن الإسلام كرّس استقلالية المرأة في مالها، وأوجب على الرجل الإنفاق على السكن الزوجي وعلى زوجته في مأكلها

وملبسها ومعيشتها، ضمن الاستطاعة.

الأهداف 6 و13 و14 و15: المياه الصحية والنظافة الصحية – العمل المناخي – الحياة تحت الماء – الحياة في البر: النهي عن الفساد في كل الميادين محرّم شرعاً، وقد ذكر الله تعالى ذلك في العديد من الآيات، نذكر منها: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : 41]. (يراجع في موضوع الفساد، مقالة قراءة في آية: «... ولا تبغ الفساد في الأرض، إن الله لا يحب المفسدين» الموقع الشخصي www.abdulilahmikati.net. وفي موضوع النظافة، تكلمنا في الفصل الثاني على: الطهور شطر الإيمان).

الهدف 7: طاقة نظيفة وبأسعار معقولة: حديث الرسول عليه الصلاة والسلام حول هذا الموضوع: «الناس شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار»، وقد فسر علماؤنا، النار بالطاقة على أنواعها، وأنظف أنواع الطاقة المتجددة الطاقة المتولدة من الماء والهواء والشمس.

الهدف 8: العمل اللائق ونمو الاقتصاد: لقد ربطت آيات القرآن الكريم في ما يزيد على 70 آية بين الإيمان والعمل الصالح ﴿... ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾، «ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً...»، ويرى العلماء أن مرتكزات الحضارة الإسلامية ثلاثة: الإيمان والعلم والعمل، وهي قوام التنمية المستدامة. (يراجع كتابُنا «مسيرة التعلم عند العرب» مرتكزات الحضارة ص

149 – 152)، وقوام التطور الاقتصادي والاجتماعي و....

الهـدف 10: الحـد مـن أوجه عـدم المسـاواة: يقـول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ...﴾ [الحجرات : 13]، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: «خير الناس أنفعهـم للناس»، وفي الآية الكريمة والحديث الشـريف الخطاب موجه لعموم الناس، وليس محصوراً بالمسلمين وحدهم.

الهدف 11: مدن ومجتمعات محلية مستدامة: في هذه المادة تخـوفٌ مـن ازدياد عدد المدن المكتظة سـكانياً وزيـادة الفقر في بعض أحيائها وانتشار الجوع فيها، والنبي المصطفى عليه الصلاة والسـلام يقول: «أيما أهل عرصةٍ (أي منطقة معينة) أمسـوا وفيهم جائع فقد برِئت منهم ذمة الله ورسوله».

الهـدف 12: الاسـتهلاك والإنتـاج المسـؤولان: الاقتصاد في اسـتهلاك الثـروات الطبيعيـة لـه الأهمية البالغة في الإسـلام، وما حديث الرسول صلّى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنـه عندما كان يتوضأ ويسـرف في اسـتهلاك المـاء وقوله له: «لا تسرف يا سعد»، فقال سعد: أفي الوضوء (والوضوء عبادة) سرفٌ يا رسول الله؟، فقال النبي عليه الصلاة والسلام معلماً البشرية من بعـده: «ولـو كنتَ على نهرٍ جار !!». أمـا الإنتاج فالجودة والإتقان كانـا دائمـاً هدفاً بالغ الأهمية عند النبي عليه الصلاة والسـلام في قولـه: «إن الله يحب إذا عمـل أحدكم عملاً أن يتقنه». وفي القرآن

الكريـم تأكيـدٌ على الإحسـان في كل ما يقوم به الإنسـان من قول وعمل «والله يحب المحسنين».

الهـدف 16: السـلام والعـدل والمؤسسـات القويـة: تحيـة الإسـلام السـلام، والسـلام مـن أسـماء الله الحسـنى، والسـلام أصـل من أصول الإسـلام. لذلك يرى جمهور علماء المسـلمين أن الإسـلام لا يبيح للمسـلمين قتال غير المسـلمين إلا إذا قاموا بالاعتـداء علـى المسـلمين، عمـلاً بالآية الكريمـة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ...﴾ [البقـرة : 256]. والعـدل أيضاً أسـاس فـي الإسـلام: ﴿...وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ...﴾ [النساء : 58]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ...﴾ [النحل : 90]، والأحاديث الشـريفة فـي الأمر بالعدل بين عموم الناس – لا فرق بين مؤمن وكافر – كثيرة أيضاً.

الهـدف 17: عقد الشـراكات لتحقيق الأهداف: أمر الإسـلام بالتعـاون فـي الآيـة الكريمـة: «وتعاونـوا علـى البـر والتقوى ولا تعاونـوا علـى الإثـم والعـدوان»، ويـرى العلماء أن هـذه الآية قد اشتملت على جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم. ويقول الرسول صلّى الله عليه سلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسـهر والحمّـى» (رواه مسـلم). لذلـك كان التعـاون والتعاضد والتضامن من سمات المجتمع في صدر الإسلام.

وكذلك الأمر في الإعلان بشـأن القضاء على جميع أشـكال

التعصب والتمييز القائمين على أساس الدين أو المعتقد الذي أُعلن ونُشر بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 36/ 55 المؤرخ في 25/ 11/ 1981، والذي يؤكد أن كل طفل يتمتع بالحق في تعلم أمور الدين والمعتقد وفقاً لرغبات والديه. والرسول عليه الصلاة والتسليم يقول: «كل مولود يولد على الفطرة (أي قابلاً لدين الإسلام بالفطرة) فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه أو ينصّرانه». والذي يؤكد أيضاً أن لكل إنسان الحق في حرية التفكير، وحرية الإيمان بالدين الذي يختاره، وقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ...﴾ [البقرة : 256]. ويقول أيضاً: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة : 8].

والأمر بمعاملة غير المسلمين بالبرّ والقسط، من الأسس الهامة، والمبادئ التي تبنى عليها الأوطان، وله أهمية بالغة في العيش المشترك بين المسلمين وغير المسلمين. كما ينص هذا الإعلان على عدم التمييز بين الناس على أساس الدين أو المعتقد، والقضاء بينهم بالعدل. والتاريخ الإسلامي يشهد لشريح القاضي الذي قضى للنصراني في موضوع الدرع ضد علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، لأن علياً لم يستطع إثبات أنّ الدرعَ درعُه. فقال النصراني – بعد أن شاهد عدل القاضي –: «هي والله يا أمير المؤمنين درعُك، أخذتُها عندما وقعتْ عن جملِك الأوْرق، فإني أَشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقال علي رضي الله

عنه: أما إذا أسلمت فهي لك».

فالإسلام هو دين الله الخاتم والكامل، يقول تعالى: ﴿...ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا...﴾ [المائدة : 3]، حفظه الله تعالى دون سائر الأديان، بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، وميزه دون سائر الأديان بأنه رحمة للعالمين كافة. من سلك صراطه المستقيم، فاز في الدنيا والآخرة. وقد وضع الأطر السليمة لكل الثوابت في كل زمان ومكان، وترك تفاصيل المتغيرات لاجتهاد العلماء، وتشاور الحكماء، وتغيّر الزمان والمكان. ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «إن الله فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياءَ رحمةً لكم غير نسيانٍ، فلا تبحثوا عنها» (رواه الدارقطني وغيره).

وفي الختام لا بدّ من الإشارة إلى أن الله تعالى أخفى قبول التوبة حتى يواظب الإنسان المكلّف على المحافظة على توبته، وأخفى قبول الأعمال الصالحة ليوم الحساب حتى يبذل الإنسان ما في وسعه لتكون أعماله خالصة ومقبولة من رب العالمين، وأخفى رضاه في الطاعات حتى تكون المواظبة عليها والزيادة فيها متواصلة، وأخفى ساعة الموت الذي قد يكون في أي لحظة حتى يكون الاستعداد لهذه اللحظة وما بعدها، في كل ساعة وحين.

حقاً عجبت لمن له عقل وفكر، وسمع وبصر كيف لا يؤمن، ولا يعمل بما جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة، وما فيهما، من فرائض وسنن، وأوامر ونواهي، وتشريع وقيم وآداب، وقد أثبتت الأيام والسنون والقرون (ما يقارب الخمسة عشر قرناً من الزمان) صحة وسلامة، وخير وتقدّم من تمسّك بهما من إنسان أو مجتمع. والله تعالى يقول في صريح الآية الكريمة في سورة الإسراء: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : 9]، ويقول عن نبيّه المصطفى صلّى الله عليه وسلّم: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : 3– 4]، ومما يقوله هذا النبي الخاتَم صلّى الله عليه وسلّم: «تركتُ فيكم أمرين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي».

ملحق رقم 1

بين العقيدة والقيم

كنا في كتابنا «مسيرة التعلم عند العرب» قد تناولنا فلسفة التربية والتعليم وأشرنا إلى أنها يجب أن تنطلق وتتماشى مع عقيدة المجتمع، وأن تسعى المؤسسات التربوية والتعليمية، لزرع القيم الإنسانية المنبثقة عن عقيدة المجتمع، حتى لا يختلّ توازنه، ولكي تكون مسيرة الأجيال فيه على صراطٍ مستقيم، مستمدٍّ من الثوابت التي يؤمن بها معظم أفراد المجتمع، وتشكل نبراسه المنير. وسواءٌ كانت هذه العقيدة إيمانية مُنزلةً من ربّ العالمين، أم وضعيةً أخلاقية، اجتماعية، أو سياسيةً متفقاً عليها بين أبناء الوطن الواحد، فإن القيم الإنسانية فيها تبقى مشتركة في معظمها، كالصدق، والوفاء، والمروءة، والشجاعة، والحياء، والإخلاص، والأمانة، والصالح العام، والعمل بروح الفريق، والعدل، والمساواة في الحقوق والواجبات وغيرها.

وفي هذا المقام، أود أن أشير إلى أهمية التلازم بين العقيدة والقيم، كما هي في الإسلام، ودور العقيدة في تثبيت القيم في نفوس البشر وتزكيتها، وأثر ذلك في بناء شخصية الإنسان.

وأستعين على ذلك بتشبيه بناء شخصية الإنسان بالشجرة، جذورها تمثّل العقيدة وهي لا تُرى في ذاتها لأنها ضاربةٌ في الأرض، فالعقيدة مقرّها القلب، لأن «الإيمان هو ما وقر في القلب...»، كما ورد في الحديث النبوي الشريف. وبالتالي، فإن تكوين شخصية الإنسان، يبدأ مع نمو الروح الإيمانية وزرع العقيدة في صلب الذات الإنسانية، وهذا التكوين الروحي يسبق تكوين العقل ونماءه. ذلك أن تكوين العقل ونماءه لا يكون إلا بالعلوم والمعارف التي يتلقاها الإنسان بالتدرج في البيت أولاً، ثم يكون معظمها في المدرسة والجامعة، ثم في ميادين العمل والبيئة المحيطة. أما الروح الإيمانية، فهي من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، «يولد أحدكم على الفطرة...»، والتي تبدأ مع قيام الطفل بالعبادات والشعائر الدينية – مقلّداً ومبادراً – من حفظٍ لبعض الآيات القرآنية، وصلاةٍ وصومٍ، وهذا ما يكون غالباً بين الخامسة والثامنة من عمر الإنسان. والتربية الإيمانية أولاً، تساهم في تقنين جوانب الشهوة والغريزة وتجعلهما في ميادين الخير. ولعل من أهم خصائص التعليم في عصر الحضارة الإسلامية، أن امتزجت التربية الدينية بالعلم، بل سبقت التربيةُ الدينيةُ والتعليمُ الدينيُ العلومَ الدنيوية، فكان الولد يحفظ القرآن الكريم أولاً، ثم السنة النبوية، ويتعلم الصلاة، ويتعلم آداب المعاشرة، واحترام الناس،وحق الطريق، وأدب الخطاب والحوار.... قبل أن يتعلمَ علوم الحساب والفيزياء والفلك وغيرها. وبفضل ذلك كان

الناس يصبحون علماء في سن الخامسة عشرة، كابن سينا مثلاً وغيره من العلماء الذين ذاع صيتهم في الآفاق. ذلك «أن تربية الروح وصقلها يسمح بتجليات العقل وإفرازاته». كما يقول أهل الحكمة.

وأما الجذع فيرمز إلى العبادات، لأنها أول ما ينتج عن الإيمان. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ...﴾ [التوبة : 18]، ويقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان» (الترغيب والترهيب 1/ 174). والعبادات مرئية كما جذع الشجرة. يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : 56]، والعبادات هي أول ما يؤمر به المرء بعد إسلامه. ولا أدلّ على ذلك من قول رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلى علي بن أبي طالب عندما ابتعثه إلى اليمن على رأس سرية، حيث يقول: «إذا نزلتَ بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، وادعهم إلى أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة، فإن أجابوا فمرهم بالزكاة، فإن أجابوا فلا تبغ منهم غير ذلك.....»، ومع أداء الفرائض والقيام بالعبادات، يبدأ تلقي العلم، وينمو العقل، ويشتدّ الساعد.

وأما الأغصان، فهي تمثل القيم السلوكية الإنسانية التي تتغذى من الجذور، عن طريق جذع الشجرة. فالصلاة «تنهى عن الفحشاء والمنكر»، والصوم تهذيبٌ للنفس وتعويدٌ لها على

تـرك المنكرات، والتمسـك بأخلاق الإسـلام الفاضلـة، كما ورد فـي الحديث الشـريف «إذا أصبح أحدكم يومـاً صائماً، فلا يرفث ولا يجهـل، فـإن امرؤ شـاتمه أو قاتله فليقل إني صائم إني صائم» (صحيـح مسـلم، كتاب الصيـام، باب حفـظ اللسـان للصائم، ح 160/ 1151، 2/ 806). والزكاة طهرة للنفس البشـرية، وتكافل في المجتمع، وقوة ونماء حقيقي له، وهي مطهّرة لصاحبها من خبث البخـل وحب المـال، وبإخراجهـا ينعم المجتمـع كل المجتمع، ويتآلف أفراده جميعاً ويتكافلون ويتكاتفون، وهكذا دواليك...

وعن الأغصان، تخرج الثمار التي تمثل عمل الإنسان وسعيه في هذه الحياة، لأنها هي التي تنفع صاحبها وتنفع المجتمع كله، فالثمار هي الناتج الأساسي للشجرة، كما عمل الإنسان هو الذي يعكس دوره في المجتمع وسعيَهُ فيه.

والاعتناء المتواصل بالشـجرة، يكون، في أوقات معينة، من خلال سـقايتها، وتسميدها في الأرض المجاورة للجذع، وحراثة هذه الأرض، حتى تمتص منها الجذورُ ما يلزمها من غذاء، فتقوى وتزداد فعاليتها، ويقوى الجذع ويشتد عوده.

كذلـك الإنسـانُ الصالـح، هـو بحاجةٍ إلـى ما يقـوّي إيمانه وعقيدته، ويزيد من عزيمته، فقد شرع الله له محطات تنقيةٍ إيمانية معروفـة، كالصـلاة وما تمثله من وقوف بين يدي الله «أرأيتم لو أنّ نهـراً بباب أحدكم يغتسـل فيه كل يوم خمسـاً ما تقـول ذلك يُبقي من درنه؟ قالوا: لا يُبقي من درنه شـيئاً. قال فذلك مثل الصلوات

الخمس يمحو الله بهن الخطايا» (صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة. باب الصلوات الخمس كفارة ح(497) 1/ 282). ومن هذه المحطات الإيمانية يوم الجمعة من كل أسبوع، وما فيه من فضائل، وصوم رمضان والأيام التي يستحب فيها الصيام، وموسم الحج والعمرة للعمرة وغير ذلك، مما يشكل محطات زمنية، يستشعر فيها المسلم صوابية وقوة عقيدته، فيزداد إيمانه، وتنقى عباداته، وتطهر قيمه، ويستقيم سلوكه أكثر فأكثر.

ويكون الاعتناء بالشجرة من خلال رشّ أغصانها بالمبيدات لحمايتها وحفظها من ملوثات وميكروبات الجو الخارجي الموبوء، وتشذيب أغصانها بين الفينة والأخرى. وكذلك حال القيم الإنسانية، فمنها ما يجب الاعتناء به باستمرار، وتقويته، وإعطاؤه المدى الأوسع، كالصدق مثلاً، إذ يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة : 119]، وقد وردت آيات قرآنية، وأحاديث نبوية كثيرة تأمر بالصدق، وتنهى عن الكذب، ولم يرد أمرٌ من الله تعالى بأيّ من القيم، كما ورد في الصدق لما له من أثر كبير في صلاح المجتمع، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الصدق يهدي إلى البِر وإن البِرّ يهدي إلى الجنة». وكذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لأن يضعني الصدق، وقلّما يضع، أَحب إليّ من أن يرفعني الكذب، وقلّما يفعل». ويقول بعض الحكماء: «الصدق منجّيك وإن خفته، والكذب مُرديك وإن أمنته».

أختم هذه المقارنة وهذا التشبيه، بالآية القرآنية الكريمة، في سورة الأعراف ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا...﴾ [الأعراف : 58]، والآية الكريمة في سورة إبراهيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۞ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم : 24– 25]

فالعقيدة أصل، والقيَم فرع، وهذه القيم تقوى وتضعف بقوة العقيدة وضعفها. ومع قوة وأصالة هذه القيم الإنسانية، يقوى السلوك الإنساني السوي، ويزداد نفع المجتمع، وترتفع الحضارة الإنسانية وتزداد سمواً.

لا شك في أن الحضارة الإسلامية، قامت وانتشرت في أرجاء المعمورة، وأسست لما بعدها، بفضل التلازم الوثيق، بين القيم الإسلامية السمحة التي تغذّت وتمكّنت في النفوس، بفضل التربية الدينية على أسس العقيدة الإسلامية، من ناحية، وبين العلم الذي ازدهر وتطوّر، بشكلٍ ملحوظ، ولم يسبق له مثيل، استجابة للدعوة الربانية ﴿...وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه : 114]، ولدعاء النبي الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى: «اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً». فكان طلب العلوم على أنواعها، جزءاً من عبادة الإنسان يتقرب بها إلى ربه.

وقد تكلمتُ بإسـهاب عن هذه المرحلة في كتابي «مسـيرة التعلم عند العرب».

فـي المجتمعات التعددية، حيث تكثـر الطوائف والمذاهب وتتعـدد الأحـزاب والتيـارات، وبالتالي تتعدد العقائـد التي يؤمن بهـا أفـراد المجتمع، يصبـح الاهتمام بالقيم الإنسـانية – الجامعة والمشـتركة بيـن العقائد – مجرّدةً من عقيـدة معينة، أكثر صعوبة، وأشدّ إلحاحاً، بالمقارنة مع ما إذا كانت التربية على القيم مرتبطة بعقيدة واحدة معينة.

نستدل على ذلك بالتجربة اليابانية بعد الحرب العالمية الثانية في العام 1945 حيث خرجت اليابان من هذه الحرب منهكة تماماً، واقتصادها مدمر تدميراً كاملاً، وقد وقّع إمبراطور اليابان على وثيقة الاستسـلام بشـروط مذلة. فقد قامت اليابان بإدخال مادة إلزامية، في جميع مراحل التعليم، من الحضانة إلى الجامعة، وهي Moral Education، أي التربيـة علـى القيم وهـي مبنية على ثلاثة محاور، «القيم الإنسـانية – الإخلاص للوطن – وحب الإمبراطور»، وهي مسـتمدة من العقائد التي كانت سـائدة قبل الحرب واشتهرت بها الديانات البوذية والشنتوية والفلسفة الكونفوشيوسية.

يقـول الباحث المصـري د. أحمد نبوي، الـذي تلقى علومه الجامعيـة العليا في اليابان، في مقالـة له بعنوان «منظومة القيم في المجتمع الياباني»، نُشرت في جريدة الأهرام العدد 44718 تاريخ 13 أيـار 2009: «يتسـاءل الكثيرون عن أسـرار النهضة الاقتصادية

والتكنولوجيـة اليابانيـة. وفي حين يعـزو البعض تلك النهضة إلى العمل الدؤوب المستمر، يحاول البعض الآخر تقديم تحليل أكثر عمقاً، يأخذ في الاعتبار مكونات الثقافة اليابانية بصفة عامة، وتأثير الديـن بصفة خاصة. فمن خـلال تضافر الديانة البوذية واندماجها مـع بعـض عناصر الفكـر الكونفوشيوسـي والديانة الشـنتوية، تم إرساء القاعدة الصلبة التي على أساسها نشأت وتطورت المنظومة القيميـة اليابانية. ولهذا فليس من المسـتغرب إمكانية تتبع العديد مـن القيـم اليابانية المهمة وردها إلى أصولهـا الدينية. فمثلاً يركّز اليابانيـون فـي مدارسـهم علـى مبـدأ «الجـد والاجتهـاد أهم من الموهبـة والـذكاء الفطـري للطفـل»، ولـذا تراهم يسـتعملون في تعابيرهم عبارتي «سـأبذل قصارى جهدي» و« سـأعمل على ذلك بكل جدية»، لأنهم يؤمنون بأن النجاح والتفوق، يمكن أن يتحقق بالاجتهـاد وبـذل الجهـد وليس بالـذكاء فقط، فالجميع سواسـية وخُلقـوا بقـدر من الذكاء يكفيهم. وهمـا، أي النجاح والتفوق، لا يتحـدّدان باختـلاف الموهبة والذكاء، ولكـن بالاختلاف في بذل الجهـد. وهـذه القيمة، قيمـة الإصـرار وإمكانية تحقيـق النجاح، ترتبـط ارتباطـاً وثيقـاً بالاعتقاد البـوذي اليابانـي بإمكانية وصول أي شـخص إلى الحكمة والتنور المؤديين إلى السـعادة المطلقة. كمـا سـاهمت التعاليـم الدينيـة البوذيـة القائمـة علـى الاعتدال، وعلى تجنب الانغماس في الشـهوات الحسـية والمادية في تقبّل الأشـياء الصغيرة البسيطة، «كما سـاهمت فكرة المعاناة في شحذ

هممهـم لمواصلـة الحيـاة وللتغلب علـى المصاعب، وللشـعور بالحـب نحو خالق الكـون حتى يمكنهم الخلاص مما يقاسـونه. وعلـى هـذا شـكلت فكـرة المعانـاة نوعـاً مـن القدريـة الإيجابية لا السـلبية، قدرية تقوم على التسليم والخضوع والطاعة للسلطة، والإخـلاص للوطن، وحب الإمبراطور، حبـاً يصل إلى التقديس والعبـادة». وبفضل ذلك اسـتطاعت اليابـان أن تنهض من كبوتها بعد الحرب لتحقق تقدماً علمياً وصناعياً غير مسـبوقين في تاريخ العالم الحديث.

ولكـن ومـع مـرور الزمـن ومـع التخلـي الرسـمي والفعلي عـن الالتزام بالعقائـد الدينية، تراجع الالتـزام بالتربية على القيم، وأصبحت هذه المادة اختيارية في البرامج التعليمية، بدل ما كانت إلزاميـة في فتـرة ما بعد الحـرب. وتراجع واندثر الالتـزام الديني بالعقائد التي كانت سائدة قبل الحرب عند الناس، فتراجع مستوى الأخـلاق لـدى طلاب المدارس والجامعـات وتزايدت معدلات الجريمة بين الأحداث، وفي تقرير لمراسل الجزيرة، قالت مديرة إحـدى المـدارس الابتدائية، وتدعى ميكونا روسـيه، «لاحظنا في السـنوات الأخيـرة تزايد المشـاكل العائلية، وابتعـاد الأطفال عن ذويهم وانعدام التواصل الأسري، ونعتقد أن الحل هو في استعادة الأخـلاق التي تحافظ على الاحترام بين أفراد المجتمع»؛ ولذلك « أصدرت الحكومة اليابانية وثيقة توجيهات تجعل تعلم العادات الحميدة التي كانت سـائدة في حقبـة إيدو (حقبة الالتزام بالعقائد

البوذية والشـنتوية وغيرها) قبل نحو ثلاثة قرون مادة أساسـية في المدارس بحلول العام الدراسي 2018، وعزت قرارها إلى وجود علاقة بين تراجع مستوى الأخلاق لدى طلاب المدارس الابتدائية وبيـن تزايد معـدلات الجريمة بين الأحـداث». (موقع الجزيرة – اليابان تلزم طلابها بتعلم الأخلاق عام 2018).

أخلص إلى القول بأن التربية على القيم الإنسـانية والتي هي بمجملها منبثقة عن العقائد الدينية تتراجع مع مرور الزمن، إذا لم تكن مؤسسـة على العقيدة الإيمانيـة ومرتبطة بها، ومنضبطة معها في إطار الوازع الديني والرقابة الذاتية على هذه القيم والسلوكيات المنبثقـة عنهـا. ذلك أن انسـلاخ القيم عن العقيدة، يشـبه انفصال الأغصان عن الشجرة، فلا تلبث طويلاً حتى تذبل وتموت.

نشرت في مجلة المكارم
العدد السابع – حزيران 2016.

ملحق رقم 2

الأوقاف الإسلامية:
نحو دور رائد في التنمية المستدامة

الوقف في الإسلام هو «حبس الأصل وتسبيل الثمرة». أي إنه مبادرة من الواقف بعملٍ يخدم مصالح المسلمين، ابتغاء ثوابٍ من الله تعالى، عملاً بالحديث الشريف «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». رواه مسلم.

لذلك كان للوقف وظيفةٌ أساسية – حتى يكون صدقة جارية – وهي خدمة المقاصد العامة للشريعة الغراء.

ولكي يكون كذلك، فإن هذه الخدمة يجب أن ترتبط ارتباطاً مباشراً بالسياق الاجتماعي، والحضاري العام للمسلمين. لذلك كان لزاماً على المسلمين، تجديد نظام الوقف بما يتلاءم مع خدمة الأهداف، التي سعى لتحقيقها، ومراعاة مسيرة التطور الحضاري للأمة الإسلامية، وللمجتمع الذي يوقف فيه.

إن عدم تجديد نظام الوقف بما يتلاءم مع المتغيرات الاقتصادية في عصرنا الحاضر، قد أدّى إلى تراجع الوقوفات الحديثة، وإلى تراجع مداخيل الأوقاف السابقة، قياساً إلى التضخم الحاصل في

الاقتصاد العالمي، عموماً، وفي دولنا الإسلامية خصوصاً، وفي لبنان على الوجه الأخص. وهذا بدوره انعكس بشكل واضح على وضع المسلمين عموماً، وعلى دورهم ومستوى أوضاعهم المعيشية، وأدّى إلى تراجع الوقوفات الحديثة.

وهنا يبرز السؤال الأساس: هل يجدر بنا أن نطبق شرط الواقف بحرفيته، أم أن نلبي مقاصد الشريعة في شرط الواقف؟ مما لا شك فيه أن قوة وفعالية مقاصد الشريعة في شرط الواقف تتغير مع تغير الأزمنة والأمكنة. إن قوة الوقف وفاعليته ترتبط بنضج الوعي الاجتماعي لمقاصد الشريعة. وازدهارُه مؤشرٌ على مراعاة تلك المقاصد وما تتضمنه من مصالح المسلمين. وإذا كان البعض يعتبر شرط الواقف كنص الشارع في الفهم والدلالة والعمل به، فإن البعض الآخر يعتبره كنص الشارع في الفهم والدلالة دون العمل بحرفيته، إذا كان يتناقض مع المقاصد المرجوة من الوقف، وخصوصاً مع مرور الزمن، ومع تغير المعطيات التي أوجبت النص المذكور.

الضرورات الخمس

لا شك في أن أهمّ مصالح المسلمين تتلخص في خدمة الوقف للضرورات الخمس، وهي مرتّبة حسب الأهمية:

حفظ الدين – حفظ النفس – حفظ العقل – حفظ النسل – حفظ المال.

1. حفـظ الديـن: ويشـمل بناء المسـاجد، وخدمتهـا وصيانتها، وتدريـس العلـم الشـرعي، والتعليـم الدينـي، ونشـر الدين، والدعوة إلى الله، والإنفاق على موظفي الأوقاف، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، ومساعدة المعوزين بتأدية الفرائض ومنها فريضة الحج، وما إلى ذلك.
2. حفظ النفس: ومنها إطعام الفقير، ومقاومة الأمراض المعدية، ومعالجـة المرضى المعوزين، وإقامة التكايا والملاجئ لمن لا مأوى لهم. ويجمع الباحثون على أن حفظ النفس ظلّ من جهة علاجها من الأمراض والأوبئة مسؤولية الأوقاف طوال التاريخ الإسلامي حتى مشارف العصر الحديث. كما يدخل فـي ذلـك إزالـة الأذى من الطريق حتى لا يتعثر به المسـنون والمكفوفون.
3. حفـظ العقـل: العلـم غـذاء العقـل، ولذلك كانـت الأوقاف علـى التعليم في عصر الحضارة الإسـلامية، تشـكل مصدراً بالـغ الأهميـة في نشـر العلـم والإنفاق على طلبـة العلم بما يسـدّ حاجتهـم وحاجة مـن يعلمهم. ليس هذا وحسـب، بل كثيـراً مـا كان يفيـض ذلـك عن حاجاتهـم المادية المباشـرة ويساهم في دعم أبحاثهم واكتشافاتهم. وبفضل ذلك، انتشر العلـم فـي ذلك العصـر وتطورت الاكتشـافات العلمية على أيدي علماء المسـلمين تطوراً لم تشـهد له مسـيرة الحضارة الإنسانية مثيلاً على مر العصور والأزمنة. يكفي أن نشير إلى

أن اكتشافات عالم الرياضيات الخوارزمي، تشكل أساساً في علم الكومبيوتر والإنترنت حتى يومنا هذا.

4. حفظ النسل: والمراد به حفظ النوع الإنساني بالتناسل من خلال الإنفاق على الراغبين في الزواج من غير القادرين، وبناء الأسر، ومعالجة عسر الإرضاع، وأهمية وضوح نسب الفرع إلى الأصل، حتى لا تضيع الأنساب أو تختلط بغير وجه شرعي.

5. حفظ المال: والهدف من ذلك هو حفظ أموال المسلمين من التلف، أو الخروج إلى أيدي غير المسلمين بدون عوض، وتجنب الربا في المعاملات، والإنفاق دون تبذير أو إسراف؛ وهذا ما يقودنا إلى إيجاد فرص الاستثمار وتنمية المال من خلال دورة اقتصادية سليمة تؤمن فرص العمل بشكل متواصل. وهذا ينطبق على الاستثمار في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والخدمات، وغير ذلك، سواء في مشاريع وقفية كاملة، أو من خلال تملّك أسهم معينة في بعض هذه المشاريع.

محاور التنمية المستدامة

وفي المقلب الآخر، أي في الحديث عن الإنماء، يجمع الباحثون على أن التنمية المستدامة تقوم على ثلاثة محاور أساسية وهي:

- **المحـور قصيـر المدى**، ويشـمل المسـاعدات التـي تقدم إلى طبقات الفقراء والمعوزين لسد حاجاتهم الآنية، سواء الغذائية أو الاستشـفائية أو الدوائيـة، أو كسـوتهم وزواج غير القادرين ماديـاً، وما إلـى ذلك، وهذا ما يدخل في تبويبنا السـابق تحت عنوان «حفظ النفس» و«حفظ النسل».
- **المحور متوسـط المدى**، ويشـمل إقامة المؤسسات الصناعية والتجاريـة والزراعيـة والخدماتيـة على اختـلاف أنواعها التي تؤمن فرص العمل لمختلف فئات الناس، وتسـاهم في تكامل الـدورة الاقتصاديـة، وهذا مـا يدخل في تبويبنا السـابق تحت عنوان «حفظ المال».
- **المحـور طويل المدى**، ويشـمل التعليم، ومـا يحمل في طياته مـن اكتشـافات علمية متواصلـة ترتكز على الأبحـاث العلمية فـي الجامعـات، والقابلـة للتطبيـق والتي تشـكل نفعاً مباشـراً للمجتمع، ودفعاً متواصلاً لمسـيرة الحضارة الإنسـانية، والتي بدورها تسهم في إنشاء شركات ناشئة وما يتبع ذلك من إيجاد فـرص عمـل وتطـور اقتصادي. ويكـون ذلك اسـتجابة لدعاء الرسـول عليـه الصلاة والسـلام منذ مـا يزيد على أربعة عشـر قرناً من الزمان، «اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمـاً». وهـذا ما يدخل في تبويبنا السـابق تحت عنوان «حفظ العقل».

أما الضرورة الباقية أي حفظ الدين، فهي، بداهة، الأصل في

كل ذلـك، لأنهـا ترعـى زرع العقيدة في النفوس، وإقامة الشـعائر الدينية، وتشـجع علـى الخير وبذل الصدقـات، وتدعو إلى التزام القيم الإنسانية، وتشجع على سلوك الصراط المستقيم.

يبقـى أن نشـير في هذا المضمار إلـى أمرين اثنين هما: وقف المـال ووقـف الأسـهم، وهو مـا تطرق إليـه علماؤنا فـي العصر الحديث.

1. **وقف المال**: يرى العلماء أن وقف المال يساهم في تحصين القطـاع المالي، بالإضافة إلى دوره التنموي المذكور سـابقاً في حفظ الضرورات الخمس. يقول أحدهم: «إن قضية وقف الأموال شـهدت خلافاً تاريخياً بين الفقهاء، إلا أنها حُسمت لصالح مشـروعيتها، شـرط أن تتحول الأموال الموقوفة إلى أعيان، أي أصول ومشاريع تدرّ عائدات يصرف الجزء الأكبر منها على الفقراء، ويوظّف الجزء المتبقي لتنمية هذه الأصول وصيانتهـا». وبفضل ذلـك تخرج الأموال الموقوفة من دائرة الإنفـاق غيـر المجدي إلى دائرة التشـغيل والإنتاج الحقيقي للسلع والخدمات والأصول. وبفضل ذلك أيضاً يُتاح لعموم الناس فرصة المسـاهمة في مشـاريع وقفية «عملاقة» بشكلٍ أوسـع مما هـو متاح في الوقف العيني. كمـا أن وقف المال يسـاعد في توفير السيولة للقروض الحسنة لمن يريد أن يبدأ مشـروعاً تجارياً خاصاً بدون فائدة. ومن ميزات وقف المال أيضـاً «أنـه يخفف من أعباء الدولـة بخاصة في ظل التقلبات

الاقتصاديـة المحليـة والعالمية، ويوفر مصـادر ذاتية لتمويل المشاريع الوقفية الخيرية».

2. **وقـف الأسـهم**: يقول الشـيخ الدكتور محمد نـور العلي في بحث مسـتفيض نشـرته مجلة البحث العلمي الإسـلامي في عددها السادس والعشرين بتاريخ 29/ 11/ 2016: «إن الكثير منـا يتمنى أن تكون لـه صدقة جارية أو وقف خيري يُنتفع به بعـد موته، لكـن إمكانيات الكثيريـن المتواضعة تحول دون هـذا العمـل. وتيسـيراً لهـذا الأمر أمـام الراغبين فـي الوقف الخيـري أطلقـت العديـد مـن وزارات وهيئـات الأوقـاف، وبعـض الجمعيـات الخليجية فكـرة الأسـهم الوقفية، وبرز على ساحة العمل الخيري في العديد من البلدان الإسلامية، مصطلح الأسهم الوقفية.

والفكرة سـهلة تتمثـل في نقل القدرة علـى الوقف إلى عموم المسلمين عبر المساهمة في وقف خيري بشراء سهم أو عدة أسهم حسـب القدرة، وحسـب الفئات المحـددة في مشـروع معين يُنفَق رَيعُه على أوجه الخير المحددة وفقاً للسهم وحسب رغبة المساهم.

والأسـهم الوقفية ليسـت أسـهماً يتم تداولها في البورصات، ولكنها تحدد نصيب صاحبها في مشروع وقفي معين، كما لا يحق له سـحب هذه الأسـهم أو التدخـل في طريقة اسـتثمارها. ويقصد المساهم من شراء الأسهم الوقفية، الاشتراك في وقف الأسهم في مشروع وقفي معين» (لمن يريد التفاصيل حول وقف الأسهم يمكنه

الرجوع إلى مجلة البحث العلمي الإسلامي في عددها المذكور).

ولا تقتصر خيرية الوقف على الجزاء الطيب في الآخرة، بل هو عمل يتكامل فيه الخير بين الدنيا والآخرة. وخصوصية الوقف تكمن في صفة الدوام والاستمرار في القطاع الذي هو موقوف له.

الأوقاف على التعليم

تساهم الأوقاف على التعليم بشكل كبير جداً في توفير فرص التعليم لجميع فئات المجتمع بدون استثناء، كما تضمن استمرارية الإنفاق بشكل سليم. ففي العصر الأموي لم يعد الوقف على التعليم مقصوراً على الإنفاق على الفقراء والمساكين فقط، بل تعدّى ذلك إلى تخصيص بناء دور العلم، والإنفاق على طلاب العلم من هذه الأموال الوقفيّة، وقد أنشأ هشام بن عبد الملك ديواناً خاصاً لتنظيم الأوقاف والعناية بها والإشراف عليها. وفي العصر العبّاسيّ توسع نظام الوقف في مجالات طلب العلم، ليشمل تأسيس المكتبات العامة والإنفاق عليها، إضافة إلى إنشاء المصحّات وعلاج المرضى بالمجان. وكذلك إنشاء دور السكن للفقراء والمساكين. وكثرت الأوقاف في الدولة الأيوبيّة في مصر، فأمر نور الدين زنكي (568 هـ) بإنشاء المدارس والخانقاهات، وأكثرَ منها في كلّ بلد، وأقام بدمشق داراً للحديث ووقف عليها، وعلى المشتغلين فيها، الوقوفَ الكثيرة، وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتب للأيتام...

كما انتشرت الأوقاف وتوسعت أفقياً وعمودياً في العصرين المملوكي والعثماني وساهمت بشكل فعال في تحصين المجتمعات الإسلامية وتنميتها.

ومع إطلالة القرن العشرين الميلادي، بدأ أفول كثير من الأوقاف الإسلامية في العالمين العربي والإسلامي. ويعزو بعض الباحثين ذلك إلى ضعف القوى السياسية، وتلاعب النظّار بالأوقاف، واستبداد بعض الحكومات بأوقاف المسلمين، وغلبة الدول المستعمِرة على القسم الأكبر من العالم الإسلامي، والتأميم والمصادرة التي حصلت في بعض الدول.

في المقابل، اقتبس الغرب مبدأ الوقف عند المسلمين، فاعتمده في العديد من المؤسّسات الخاصة والعامة، وأهمها المؤسسات التعليمية. فقد بلغت أوقاف جامعة هارفرد في أمريكا، ما قيمته 25,5 مليار دولار أمريكي في نهاية العام 2005، حسب ما أوردته الجامعة في موقعها الرسمي على شبكة الإنترنت، موزعة على 10,800 صندوق استثماري مستقلّ. وقد تم تأسيس هذه الصناديق عبر السنين، لتغطية النفقات العلمية المتنوعة، مثل تغطية بعض الأقساط الجامعية للطلاب المعوزين والمتفوقين، ومساندة الأبحاث العلمية، وتطوير المتاحف والمكتبات، وتجديد مناهج التعليم، ورفع الكفاءات، وتدريب الأساتذة والطلاب، وغير ذلك من النشاطات العلميّة المختلفة. وتشرف على هذه الصناديق «شركة هارفرد للإدارة» التابعة للجامعة. وتهدف عمليات استثمار

الموجودات الوقفيّة إلى «ضمان استقرار الجامعة واستمرارها في الصفّ الأول بين المؤسسات التربوية والتعليمية» كما يذكر الموقع.

هـذا وقـد بلغت أوقـاف 20 جامعة أميركية، هـي الأولى في العالـم مـن حيث قيمة أوقافها، في العـام 2007 ما يناهز الــ 200 مليـار دولار أمريكـي، للدلالـة على الأهميـة البالغة التـي توليها إدارات هـذه الجامعـات لعمليـات الاسـتثمار فـي التعليـم، وفي تنميـة المهـارات والقـدرات وتنمية البحث العلمـي، ولكي تبقى هذه الجامعات متقدمة على غيرها. ولا يتم لها ذلك إلا من خلال الموارد المالية المستمرة والمتنامية.

الأوقاف الاجتماعية

الأوقاف الاجتماعية تخصص للإنفاق على مسـاعدة الفقراء والمسـاكين والمرضى والمعوّقيـن والمحتاجين، وغالباً ما يكون ذلك من خلال مؤسسات اجتماعية تعنى بهم كدور الأيتام، ومراكز إطعام المعوزين، والجمعيات الأهلية، والمسـتوصفات الشـعبية ودور العجـزة، وصناديـق الزكاة وغير ذلك. ولا شـك في أن هذه المؤسسـات تسـاهم بشكل مباشـر، في إعادة توزيع الثروات بين مختلف شرائح المجتمع، وتؤمّن اللُحمة الإنسانية الضرورية فيما بينهـا. واسـتطاع الوقف بذلك معالجة هـذه الحاجات المجتمعية بشـكل فعـال. ولا أدلّ علـى ذلـك ممـا حصـل في عهـد الخليفة الراشـد الخامـس عمـر بن عبد العزيـز رضي الله عنـه، بعد مضي

حوالي مئة عام على بدء الدعوة الإسلامية عندما كان يؤتى بمال الزكاة فيعطى منها الفقراء والمساكين حتى لا يبقى فقير أو مسكين محتاج، حتى إذا وجدوا أنه لم يبق في المسلمين فقراء، قالوا: جهزوا الجيش من مال الزكاة، حتى إذا وجدوه جاهزاً، وبقي من مال الزكاة، قالوا سدّوا ديون المسلمين، حتى إذا فعلوا وبقي الكثير، قالوا: سدّوا ديون غير المسلمين، فسدوا وبقي الكثير، فقالوا: زوّجوا الشباب بمال الزكاة، فزوّجوا وبقي الكثير، فقالوا: اشتروا بما تبقى حبوباً وانثروها على رؤوس الجبال لتأكل الطير من خير المسلمين...، ولا يزال هذا التقليد معمولاً به ليومنا هذا في بلاد الأناضول.

وإذا كانت هذه الرواية تخص أموال الزكاة، فإنها أيضاً تنطبق على سياسة الوقف، لأن مصارف الوقف تلتقي مع مصارف الزكاة، بل وتفيض عنها أحياناً.

خاتمة

وهكذا يتبين لنا أهمية الوقف في سد حاجات المعوزين، وفي المساهمة الفاعلة في التنمية المستدامة في مختلف قطاعاتها: الاقتصادية والاجتماعية والتربوية... ومختلف محاورها: القصيرة والمتوسطة والطويلة المدى.

أخلص إلى التأكيد على ضرورة تصويب مسار استثمار الوقف الإسلامي بما يخدم حفظ الضرورات الخمس، ويراعي

شـرط الواقـف، ويتماشـى مـع شـروط نجـاح هـذا الاسـتثمار والظروف المحيطة: الزمانية والمكانية والبيئية وغيرها. كما يسهم تجديدُ وتطويرُ وتصويبُ المسـارِ هذا في تشجيع المسلمين على القيام بوقوفات جديدة تعيد للاقتصاد الإسلامي دوره الرائد الذي لعبـه فـي العصور الغابرة، وتعيد للمجتمع الإسـلامي ألقه ودوره الأساس في مسيرة الحضارة الإنسانية.

نشرت في مجلة المكارم الصادرة
عن جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في طرابلس

الكتاب على الموقع الإلكتروني:

www.abdulilahmikati.net